الرجاء التوثيق حيثما ينبغي، والتعريف بالأعلام في الحاشية.

الإخوة الأساتذة في هيئة التحرير تحية طيبة وبعد:

فقد تم تنفيذ ملاحظاتكم جميعها.

شاكراً لكم جهودكم في القراءة والتدقيق والتصويب والنشر

واقبلوا احترامي وتقديري..... إبراهيم

مقدمة في: اللغة وفلسفة الحقيقة (4)

د. إبراهيم حسين خليل / جامعة البترا

اللغة والفيزياء: وأنصاف الحقائق.

منذ منتصف القرن التاسع عشر إلى منتصف العشرين كانت ألمانيا مركزاً حرّاً للبحث العلمي والفلسفي في أوروبا في ميادين العلوم المختلفة. لقد كان (هايدجر) يبحث في ماهية اللغة ويحددها كمعيار للكشف عن ماهية الإنسان، ووجوده في اللغة، وإن ماهية الإنسان هي اللغة بحد ذاتها؛ "فالقدرة على الكلام هي ما يميّز الإنسان كإنسان"(1). وهو يظهر من خلالها وليس العكس، واللغة تتحدث بذاتها على حد تعبيره، وسار على خطاه إلى حدٍّ ما جادامار.

في الوقت نفسه كان الفيزيائيّان: (ماكس بلانك)(2) و(هيزنبيرغ)(3) على الجانب الآخر يصوغون ماهية المادة والوجود بالفيزياء فيما عُرف بـ"ميكانيكا الكم" Quantum Mechanics .

---

[1] "مقالات في ماهية اللغة وفلسفة التأويل". سعيد توفيق. دار الثقافة للنشر. القاهرة.2002. ص 30-31. مقالة بعنوان اللغة والتفكير الشعري عند هايدجر.

[2] ولد بلانك في مدينة كيل بألمانيا سنة 1858. درس في جامعات برلين وميونيخ. وحصل على الدكتوراه في الفيزياء مع مرتبة الشرف الأولى من جامعة ميونيخ. وكان في العشرين من عمره. وبعد قليل اشتغل بالتدريس في جامعة ميونيخ ثم في جامعة كيل. وفي سنة 1889 أصبح أستاذا في جامعة برلين. و ظل كذلك حتى اعتزل في سنة 1928 في سن السبعين. في ديسمبر سنة 1900 استطاع الفيزيائي الألماني **ماكس بلانك** أن يهز الأوساط العلمية كلها عندما أعلن أن طاقة

كلمة "الوجود" نفسها هي الرابط الوثيق بين اللغة والفيزياء كحقلين بحثيين في الوجود، و"الوجود" الذي طالما ظل محل تساؤل حول حقيقته يتبدى لنا الآن من خلال نظريتين؛ لغوية، وفيزيائية. دعنا الآن نلخص باختصار شديد فلسفة هايدجر في "الكشف" اللغوي، ثم نعرض بعض ذلك الطرح الفيزيائي الذي تحوّل إلى طرح فلسفي وجودي:

1- يرفض هايدجر جلب اللغة إلى محل المحاكمة والتحليل، لتكون موضوعاً نصدر عليه أحكاماً من الخارج، لأننا منغمسون في اللغة إلى حد أن ماهيتنا نحن بني البشر تتحدد من خلالها، باعتبار الإنسان نوعاً حيّاً يملك لغة تحدد هويته كجنس له حضور في الطبيعة، فعلاقة اللغة بماهية هذا الجنس هي علاقة اتحاد؛ أي إن ماهية الإنسان هي اللغة تماماً. فهي ليست شيئاً يقع خارجنا بحيث نستطيع دراسته كأن ندرس تفاعلاً كيميائياً مثلاً أو ظاهرة هطول الثلج على المرتفعات، فمنهج النظر في اللغة يجب أن يكون مختلفاً. ومعنى أننا منغمسون في اللغة أي أننا لا يمكن أن نفكر في اللغة إلا من خلال اللغة، فالشيء الذي لا

الموجات الضوئية تقفز بصورة غير متصلة. وأنها مكونة من كموميات . ومفردها : كم. ونظرية الكم هذه قد صدمت الاعتقاد العلمي السائد في ذلك الوقت بأن الطاقة تتزايد أو تنقص متواصلا أي بلا حد أصغر للارتفاع أو الانخفاض. وهذه النظرية الجديدة وجدت في الطبيعة أن الطاقة تزيد أو تقل بكمات صغيرة لا يوجد أصغر منها من الطاقة، وادى هذا الاكتشاف إلى فهم جديد للطبيعة التي حولنا والتي تُدرس من خلال علم الفيزياء. قد جعلتنا نقترب كثيرا من فهم اعمق لطبيعة المادة والإشعاع.

[3]) ولد فرنر هيزنبرج في ألمانيا سنة 1901 وحصل على الدكتوراه في الفيزياء النظرية من جامعة ميونخ سنة 1923. ومن سنة 1924 حتى سنة 1927 عمل مساعداً للفيزيائي الدنماركي نيلز بور. ظهرت أولى أبحاثه عن نظرية الكم سنة 1925، وظهرت صياغته لمبدأ عدم التأكد سنة 1927. توفي هيزنبرج سنة 1976 عن عمر يناهز 74 عامًا. وعاشت من بعده زوجته وسبعة من الأبناء. جاء اكتشاف هايزنبرج في علم الفيزياء تحديدًا اكتشافه ميكانيكا الكم، فالميكانيكا هي ذلك الفرع من علم الفيزياء الذي يهتم بالقوانين العامة للتحكم في حركة الأشياء المادية. إنه أهم فروع علم الفيزياء، وفي السنوات الأولى من القرن العشرين، أصبحت قوانين الفيزياء المعروفة غير قادرة على تفسير حركة الأشياء الصغيرة كالذرات وجزيئات الذرات، وكان شيئا محيراً ومقلقاً أيضاً حيث كانت تلك القوانين قادرة على تفسير الأشياء الأكبر حجماً من الذرة أما الذرة وما دونها فلم تجد قوانين تفسر حركتها. وفي سنة 1925 قدم فرنر هيزنبرج قوانين جديدة تختلف تماماً عن تلك الصيغ التي قدمها نيوتن قبل ذلك. أما نظرية هايزنبرج – وقد أدخل عليها عدد آخر من العلماء بعض التعديلات – فأصبحت قادرة على تفسير حركة كل لأشياء صغيرها وكبيرها. ومن أهم نتائج نظرية هيزنبرج في تفسير حركة الذرات مبدأ اسمه مبدأ عدم التأكد. هذا المبدأ الذي وضع صيغته سنة 1927. ويعتبر هذا المبدأ من أعظم المبادئ أثراً في تاريخ العلم الحديث حيث أنه يضح حدوداً لقدرة الإنسان على قياس الأشياء.

يملك مسمىً لغوياً يحدد ماهيته في أذهننا وإدراكنا؛ فليس بموجود في الفكر، فلا يمكن التفكير فيه، فاللغة هنا هي الفكر الذي يجري عملياته العقلية على الأشياء، وهذا يعني أيضاً أن اللغة توجّه أفكارنا ولسنا نحن الذين نوجّه لغتنا. فنحن محكومون للغة ولسنا نحن الذين نتحكم بها، وعليه يقع الرابط بين الفكر الذي يتولى إصدار أحكام على اللغة واللغة نفسها، وبذلك يستنتج هايدجر أن ممارسة مثل هذا الفعل يعني أن اللغة تصدر أحكاماً على نفسها، في حين أننا نظن أننا نحن الذين نصدر هذه الأحكام. فاللغة هي التي تتكلم من خلالنا ولسنا نحن الذين نتكلم من خلالها. لقد رفض هايدجر أن تخضع اللغة للتحليل المنطقي، للسبب المذكور آنفاً أي اعتبار اللغة شيئاً خارجاً عن ذواتنا، وهو وإن رفض ممارسة التفكير المنطقي على اللغة إلا أنه وقع فيه، فهو برفضه هذا يرتكز على قاعدة منطقية تقول : إن النتائج المبنية على التفكير الدائري غير مضمونة الصحة. فإذا كانت اللغة نمطاً من التفكير؛ فالتفكير في اللغة يعني تطبيق أحكام لغوية على اللغة. فهو ممارسة مُضلِّلة كأن نقول: "زيدٌ عالِمٌ؛ لأنّ زيداً يقول ذلك".

2- اللغة تعني "القول"، وليس "التكلم" فقط، فإننا يمكن أن نتكلم لعدة ساعات ولا نقول شيئاً خلال فعل التكلم. والعكس صحيح؛ أي أنك قد تفهم شيئاً كثيراً من إنسان ساكت، فهو "يقول" أو يمارس الخبرة في اللغة من خلال السكوت. بهذا المعنى تكون اللغة قولاً وليست تكلّماً، ويزيد على ذلك أن الإنسان الذي يغمغم ويتمتم بكلمات قد تبدو لنا غير مفهومة وبالتالي نحكم بأنه لا يقول شيئاً وأنه لا يملك لغة في هذه اللحظة. بل العكس هو الصحيح، إنه يقول الكثير، وأن لديه لغة يعرفها، وإنه يملك الكثير من اللغة التي لا تستطيع الأصوات المنطوقة المنظّمة كشفها إلى عالم التجلّي، وهذا أيضاً جانب لا نجد له حضوراً في تعريفات اللغة المتعددة أو محاولات الكشف عن ماهيتها.

بناءً على النقطتين السالفتين يمكن حصر نظرة هايدجر إلى اللغة فيما يلي:

أ- إن تعريف اللغويين القدماء والمحدثين المعاصرين للغة من جهة المعنى الوظيفي أو الوصفي للغة؛ بأنها أداة تواصل مادتها الأصوات والرموز الاعتباطية عند سوسير[4] والأنظمة التي تحكمها؛ هو تعريف منقوص، إنه يعرّف جزءً من اللغة وليست اللغة كلها. ثم إن التعريف يقع في مغالطة كبيرة حيث يُجانب الحديث عن ماهية اللغة ودورها في تحديد ماهية مستعمليها، ويصفها من الخارج، فاللغة تتجسد أيضاً في السكوت، وعليه فـ"السكوت" الذي هو حالة سَلْب "للتّكلّم" هو لغة، تماماً كما تتجسد في الأصوات المنطوقة حسب الأنظمة المتعددة التي نعرفها؛ الصوتي والصرفي والنحوي...

ب- نستطيع إذا وافقنا هايدجر في ذلك أن نقول: إن المسكوت عنه في اللغة إنما هو موضع ظنّ واحتمال لأنه "غياب للمنطوق"، لأن اللغة التي هي مادة الفكر الذي لا يمكن أن يظهر ويتكشّف للوجود إلا بها؛ فإن هذا الفكر يبقى رهن الاحتمال، والتوجّه الفكري المُكْتَنَف في المسكوت عنه –الذي يؤكد عليه هايدجر في "الطريق إلى اللغة"– لا يرقى في مراتب الحقيقة أبداً بحال من الأحوال إلى الدرجة التي يصلها ما يتم نطقه والتّلفّظ به بالفعل. من هنا نؤكد بدورنا أنّ الجزء المسكوت عنه من اللغة مقابل الجزء الذي يظهر للوجود عبر أصوات اللغة يبقى رهيناً للغموض والتوقع والتخمين، وهو عادة ما يكون محلاً للتحليل الأدبي، وموطناً لولادة النظريات النقدية التي تشبه موضات الألبسة لأنها تتغير موسمياً نظراً إلى الغموض الذي يكتنف هذا الذي قصده هايدجر بـ"المسكوت عنه في اللغة".

بل يذهب هايدجر أبعد من ذلك في تعويله على لغة الشعر بمعناها الفني الواسع، أي هي أية لغة يمكن وصفها بأنها شاعرية فنية، وهي التي يمكن أن توجد في القصيدة أو القصة أو المسرحية أو غيرها من الأجناس الأدبية، هذه اللغة عند هايدجر هي اللغة الحقيقية التي تجسد

---

[4] فردينان دي سوسير **Ferdinand de Saussure** (من 26 نوفمبر 1857 إلى 22 فبراير 1913) عالم لغويات سويسري يعتبر الأب والمؤسس لمدرسة البنيوية في اللسانيات. ولد دي سوسير في جنيف، وكان مساهما كبيرا في تطوير العديد من نواحي اللسانيات في القرن العشرين. كان أول من أعتبر اللسانيات كفرع من علم أشمل يدرس الإشارات الصوتية أقترح دي سوسير تسميته *semiology* ويعرف حاليا بالسيميوتيك أو علم الإشارات.

الوجود والخبرة باللغة، لأن اللغة هنا تقول نفسها بكثافة (لغة تكثّف المعاني)، فهي لغة تقول الكثير من خلال منطوق قليل كمّيّاً، وبذلك فلغة الشعر هي أقدر على تحقيق ماهية الإنسان من غيرها.

وعلى ذلك فإن هايدجر الذي تحدّث في محاضراته تحت عنوان " ما الميتافيزيقا؟"[5] يسلك اللغة في مسلكين خلال أدائها مهمة تحقيق الماهية، المسلك الفيزيقي (الفيزيائي: أصوات ذات طبيعة موجية مقيسة فيزيائياً) وهو ما يتم التلفظ به بالفعل، والمسلك الآخر هو المُحْتَجِب، وهو ما أسماه "القول عبر السكوت"، وعليه فإن الوجه الآخر هو "ميتافيزيقي" للغة، وفي أحسن الأحوال فإنه يمكن وصف هذا الوجه من اللغة بأنه "غيبي" كما يوحي لنا وصفه له بأنه "مُختَفٍ في التّحجُّب". وإن لم يصرح هايدجر بأن هذا الجانب هو ميتافيزيقي في اللغة، إلا أنه كذلك بلا شك. كونه لم يظهر إلى الوجود الذي نعرفه نحن بني البشر، وهو جانب نبني خبرتنا به على الحدس والاحتمال والتوقع، بمعنى آخر يمكن أن نصفه بأنه يقوم على افتراض أنه موجود، فإننا لا نستطيع فعلياً محاكمة الكامن المُحْتَجب –في ذهن شخصٍ ما– بأنه صائب أو خاطئ بناءً على الكلمات التي لم يتلفظ بها(أو على اللغة التي لم تَقُلْ نفسَها –على حد تعبير هايدجر– عبر الشخص). فإن قال شخص قولاً، ثم سكت عن أشياء أخرى في نفسه؛ فإننا –على وجه اليقين– نكون قد عرفنا منه ما تلفّظ به بالفعل، أما تلك الأشياء التي لم يتلفظ بها فستبقى لنا محل ظنّ وتخمين واحتمال.

إن الكلمتين الأخيرتين " التخمين والاحتمال" تدخلاننا إلى عالم الفيزياء النظرية التي تُعنى بالوجود لا أقل من عناية هايدجر والفلاسفة أجمعين به.

ميكانيكا الكم هي المدخل الواسع إلى ذلك؛ أستاذٌ يلقي محاضرة في طلبة قسم الفيزياء، ويطلب منهم واجباً؛ وهو أن يزوِّدوه بقيمة عددية لمجهولين رياضيين هما: (س) وتعني سرعة إلكترون لذرة ما، و(م) وتعني موقع الإلكترون نفسه في لحظة زمنية محددة يختارها منفّذ التجربة. ملخص الواجب أن يقوم الطلبة بتجربة مخبرية يقيسون فيها سرعة إلكترون ما، ويحددون موقعه في اللحظة التي يقيسون بها سرعته، أي أن الحقيقة الكاملة التي يطلبها أستاذهم تتكون من نصفين

[5] انظر "مقالات في ماهيّة اللغة و فلسفة التأويل". د.سعيد توفيق. دار الثقافة للنشر والتوزيع. 2002 . ص20 وما بعدها.

يمثل المجهول (س) نصفها الأول، ويمثل المجهول (م) نصفها الثاني فيما يتعلق بالإلكترون موضع التجربة.

في أحسن الأحوال وحسب ما تم تأكيده في ميكانيكا الكم وهو مبدأ الارتياب uncertainty الذي وضعه هيزنبيرغ وينصّ على أنه: إذا استطعنا تحديد سرعة الإلكترون فإنه لا يمكننا تحديد موقعه[6]، وإذا حددنا موقعه فمن المستحيل تحديد سرعته. حسب هذا المبدأ فإن أفضل الطلبة تنفيذاً للتجربة سيكشف عن قيمة محددة لمجهول واحد هو (س)، أو (م)، أما أن يكشف عن قيمة المجهولين معاً فهذا لا يمكن أن يحدث. وهذا يعني أنه جاء بواحد من اثنين، وبلغة الرياضيات 2/1 أي أنه كشف نصف الحقيقة، لا الحقيقة كاملة. لنفترض أنه كشف عن قيمة (س)، فستبقى قيمة (م) مجهولة وموضع تخمين واحتمال. وهو ما دعا آينشتاين أن يقول : إن الربّ لا يلعب النرد. أي إن الحقيقة لا يمكن أن تكون مجزّأة إلى: جزء أكيد، وآخر مُحْتَمل، تلعب الاحتمالات دوراً في تحديد قيمته، كما يحدث في احتمالات ظهور أرقام معينة على حجري النرد.

وميكانيكا الكم إذ تُعنى بالإلكترون والجسيمات الدقيقة التي تتألف منها الذرة أو ما يسمّى "تحت الذرية"؛ لا يعني ذلك أنها بمنأى عن التحقيق في ماهية الأجسام المتوسطة الحجم والكبيرة التي نتعامل بها في حياتنا اليومية، بل تدخل إلى أعماقها كشفاً عن ماهية الوجود كله، وتحدده وتصفه انطلاقاً من سلوك هذه الجسيمات التي هي أصل الوجود المادي الذي نعرفه. بمعنى أن اللغة والفيزياء على مقربة من بعضهما، وليسا شيئين مختلفين عندما يبحثان في الوجود، وماهية الأشياء.

نظرة هايدجر للغة على أنها تكرّس للإنسان ماهيته، وهي الشيء الذي يمنحه شكلاً من أشكال الوجود، يستدعي مباشرة خبراتنا بالعالم المحسوس الذي تبني الفيزياء نموذجاً له بمنهج التجربة والملاحظة والسببية، وتصوغ لغته بلغة الرياضيات، التي يصنعها الإنسان نفسه، وهي بذلك لغة من نوع خاص تدخل مجال الخبرة اللغوية عند الإنسان كلغة للعلم مقابل لغة الشعر

---

[6] أثبت الفيزيائي جون بل صحة هذا المبدأ بإجراء عدة تجارب كانت جميعها تعطي النتائج نفسها مؤكدة أن الإلكترون لا يمكن الإحاطة بسلوكه عند لحظة زمنية واحدة. وبذلك أكد " الارتياب"، ونفى "نظرية المتغيرات المتخفّية" التي وضعها آينشتاين لنقض "ارتياب" هيزنبيرغ.

التي تكثّف المعاني الوجدانية والخبرات الحياتية، لأن لغة الرياضيات التي تستعملها الفيزياء تُكَمِّم الوجود، أي تعطيه كمّيات، وتضعه في كمّات محددة إزاء لغة الشعر التي تكثّف الوجود في ألفاظ منطوقة وأخرى مسكوت عنها. وأن تلك الرموز الرياضية هي مما يمكن التفكير فيه ببساطة لأن لكل رمز معنىً محدداً، ويشير إلى ماهية مُكَمَّمَة، فـ"السرعة" كمية مقيسة بالكيلومتر/الثانية، و"الكيلو" كمية معروفة، و"الطاقة" مُكَمَّمَة بالكتلة مضروبةً بمربع سرعة الضوء، وهكذا.

فإذا كانت اللغة حسب هايدجر لا تبدو لنا كاملة في التكشّف الظاهر في أصواتها وملفوظها، فإن الفيزياء تقول لنا بشكل يوازي تماماً ما يذهب إليه هايدجر: إن الوجود المادي لا يظهر لنا في التكشف الذي يمكن ملاحظته والتفكير البسيط فيه، لأننا ببساطة نرى نصف الحقيقة، تماماً كما نعرف جزءً من اللغة بشكل أكيد.

لقد عوّدنا الفلاسفة أن يلقوا بالألفاظ بلا تكميم رياضي، فدلالات ألفاظهم وإن كانت واضحة وصريحة أحياناً قليلة إلا أنها تفارق لغة الفيزياء من هذه الحيثية أي "التكميم الدلالي"، ونقصد به التحديد الدقيق لدلالة الكلمة، إلى حد أن دلالة الكلمة في الفيزياء والرياضيات معاً لا تعني شيئاً إذا لم تكن رقمية، فالمجهول من حقيقة اللغة هو "جزء" من اللغة، بينما في الفيزياء فالمجهول = 2/1 من الحقيقة. أي نصف الحقيقة تماماً بلا زيادة ولا نقصان. من هنا ينفتح في اللغة باب التأويل، ويصبح عملاً كشفياً مشروعاً، أو محاولةً للكشف غير مضمونة النتائج، والتأويل المرتبط بفهم الضد مقبول في اللغة، فعندما يقول أحدنا : " قد يحضر زيدٌ ". فإن لهذه العبارة معنيين في الوقت نفسه:

1- حضور زيد. 2 - غياب زيد.

فزيد إما أن يكون حاضراً أو لا يكون حاضراً ، ولكن التصريح باحتمال عدم حضوره لم يتلفظ به المتكلم. وإن سُئلت فتاة عن قبولها بالزواج من زيد فسكتتْ، يُقال على الفور : إن السكوت علامة الرضى. بهذا المعنى فإن الفتاة قالت: "نعم، أقبل بزيد زوجاً لي". مع أنها لم تتلفّظ بهذه الكلمات. فإذا كان هذا في اللغة المتداولة معروفاً ومألوفاً إلا أنه في اللغة الفنية أشدّ غموضاً وإبهاماً، والمألوف فيها هنا هو التأويل، ولكننا لا نعرف الكمية المجهولة من اللغة، والتي تفتح

لنا باب التأويل، وإلى أيّ حد يمكننا أن نمضي في التأويل، وأين علينا أن نقف. من ناحية أخرى؛ هل يجوز لنا أن نقول: إن الكم المجهول من اللغة ثابت؟ أم قد يكون متغيّراً ؛ يزيد وينقص حسب المقام، أو النص الملفوظ؟ هذه من المعضلات اللغوية، ولكن الأمر في الفيزياء أقل غموضاً، بل أكثر صراحة في تحديد كمية ارتيابنا في الوجود: من أين يبدأ ارتيابنا وشكّنا(تأويلنا) وأين ينتهي. وعليه فالنموذج الفيزيائي للوجود أدق بمرات قياساً بالنموذج اللغوي الذي يرسمه فلاسفة اللغة للوجود.

وعليه؛ ففي أفضل الأحوال نستطيع أن نقول بثقة: إننا نعرف جزءً من الوجود، ويبقى الجزء الآخر منه رهن التخمين والاحتمال.